قراءة في كتاب
نحو نظرة جديدة في علم الاجتماع الديني

الاستاذ الدكتور
عبد الامير كاظم زاهد

هناك مقولة أكاديمية تقول بأن (المعارف موجودة في عموم الفكر الديني وفي العلوم وعلى كل المستويات ، وما على الباحث إلا اكتشاف منطقها ومسار تطورها ، ومكانتها في هيكل المعرفة ومدى تأثيرها بالآخرين وتأثرها بما سبقها من أراء ونظريات وأفكار)١

و المعرفة الدينية بصورة خاصة معرفة تاريخية متراكمة معتنى بها تفسيرا وتدوينا ويحوطها شعور بالقداسة والاحترام وتبذل فيها جهود متميزة بالانشداد إليها

لقد كانت المعرفة الدينية معرفه تتطلب نمط التلقي الوجداني حتى مع اعتماد المسالك الأخرى للتلقي مثل النظر العقلي الذي يقوم بتحليل مركباتها وتحري مكوناتها وأسباب ظواهرها ومناقشة رؤاها ويعد المسلك العقلي في الغالب مقاربة غير مرحب بها لاسيما من اتجاهات تحول المعرفة الدينية الى (القدسي والمقدس) على انه لا ينفرد النظر العقلي حتى من وجهة نظر أغلب العقلانيين في كونه المسلك الوحيد لتلقي هذه المعرفة ، أنما لا بد من التربية المقصودة والموجهة عندما نتعلم الدين

ولعل هذا ما درج عليه عرف المشتغلين بالمعرفة الدينية حتى بات من قوانين التعامل البشري المعهود مع الأفكار والمفاهيم والنظريات الدينية ، لكن هذا النوع من التلقي يتعارض مع متطلبات دراسة الأديان كظاهرة اجتماعية لانها تستبطن التعامل مع الاديان بوصفها منتجات المجتمع ونواتج تجربته المصاغة وعلى وفق مقاساته فهو الذي ينتجها وهو الذي يستهلكها ، وهذا المسلك ليس من المسالك التي تضع نفسها فوق النقد والتحليل أنما يعاملها المسلك كظاهرة حالها حال بقية الظواهر الاجتماعية

التي تخضع لأدوات البحث الأنثرويولوجي والسوسيولوجي وعلى هذا المسلك صاغ يوسف شلحت كتابه الذي بين ايدينا ومن منطلق انتاج محاولة لعلم اجتماع ديني وبضابط غير أيديولوجي ، متجاوزاً السائد المعرفي وتداعياته. وعند التمعن بالكتاب تظهر التداعيات الاتية :

١- أن أول ميزة في هذا الكتاب أنه ينتقل من مقولات علم الاجتماع العام الى مقولات تخصصية في علم الاجتماع الديني ثم يوصف المقولات الدينية ويحللها على أساس مقدمات وطرق البحث الانثرويولوجي من دون الاهتمام بمقتضيات التجربة الإيمانية واللوازم الميتافيزيقية وضرورات الانقياد الروحي الحدسي لنبض العقيدة .

٢- يلاحظ المؤلف يوسف شلحت أن الديانة كمفهوم كينوني عبارة عن تكليف مزدوج يتكون من مزدوج(الحلال والحرام) وأن العالم القديم أنتقل من السحر اللازم والممنوع الى الدين الحلال والحرام، وأن قوام الأديان جميعها خمسة عناصر ((المعبد ، والعقائد ،والصلاة ،والذبائح ، والأساطير)) ❖

٣- لقد تعرض كتاب يوسف شلحت الى تساؤلات مهمة جداً منها :

أ ـ هل الدين ظاهرة وحيانيه إلهية – متعالية ؟ أم ظاهرة سوسيولوجية يمكن توظيفها على أصعدة الإيديولوجيات المقارنة لكي تدرس التداعيات الإنسانية إزاء المقولات الدينية هذا هو المنطلق الأساس للمؤلف .

ب - ويتساءل هل ظاهرة عبادة الأموات ظهرت قبل ظهور فكرة المعاد والعالم الآخر في الفكر الديني او بعده وهو هنا لا يرى أن الديانة الأولى نشأت كعبادة للأموات أنما يعتقد أن دفن الموتى وتقديس مقابره محصل في زمان يؤمن بوجود عالم آخر ينتقل إليه الإنسان فجعلت الأضرحة

*** الأسطورة : مجموعة من المعارف والتوصيفات للأشياء والأفكار التي نقلها جيل عن جيل فأصبحت من متقبلات المجتمعات وجزءاً من تراثه .**

نقطة للتواصل مع عالم الأحياء وهذا عكس السائد في الفكر الذي يحلل الأديان إذ ينتقل فيه الإنسان من الطوطمية الى فكره اليوم الآخر.

ج- ويضع شلحت سؤالاً ثالثاً هل العقائد صناعة (أفراد : كرجال الدين) أو صناعة مجتمع ، فيرى شلحت أن العقائد هي (صناعه مجتمعية) وليست نتاج أفراد أقصد (رجال الدين) فهؤلاء يحترفون نقل المعرفة الدينية ولا يخلقونها ، وهذا أيضاً موضوع يثير جدلاً واسعاً .

٤ - ويقرران هناك مفردات مشتركة في الظاهرة الدينية لكل الأديان :ففي كل الأديان هناك الشعائر والمراسم والطقوس : وفي كل الأديان هناك سلوك أنساني معبر عن الاعتقاد فهو حتىإذا أختلف من حيث الشكل فهو متوحد من حيث الباعث .كالتطهر ويتم بالماء أو النار أو الدم أو الاعتراف وهذه من الظواهر المشتركة بين كل الأديان.

٥ـ أن الفارق بين الرؤية (المتدينة) ، وبين الرؤية السوسيولوجيه للدين أن الأولى ترى أن المقدس مطلق ، والمدني نسبي والمقدس مهيمن على النسبي .

وترى : أن العقيدة مقدمة على المنفعة الإنسانية فالتضحيات يجب أن تكون للعقيدة .بينما ترى الثانية : أن المدني (لأمتناه) وأن الديني محدود بالنصوص وأفعال الاقتداء، وأن العقيدة المفضلة هيتلك التيتجلب المنفعة للإنسان لأن الإنسان هو غاية العقيدة ومحل خطابها .

أن علم الاجتماع الديني يفسر الظاهرة الدينية كأية ظاهرة اجتماعية على ضوء مبادئ التحليل الانثرويولوجي أي أنه يفسرها (من داخلها وليس من خارجها ، ولا من فوقها وهذا هو منطق السببية الاجتماعية) في حين أن هذا يفترق عن فقه الأديان الذي يفسر الظاهرة الدينية معتمداً فقط على نصوصٍ من خارجها وأفكارٍ غيبية تعززها.

٦- في دراسة الأديان منهجان : منهج دراسة تتم فيه دراسة كل دين منفصلاً عن الديانات الأخرى ومنهج تتم فيه دراسة الأديان عبر تطورها التاريخي كسلالة

اعتقاديه موصولة بثقافة المجتمعات ،ومن متطلبات المنهج الثاني أن لا يتم التعامل مع الديانات كظاهرة قدسيه متعالية ، وذلك بفصل المتنزل عن المنزلة ، والمنزَّل عن المنزل إليه ، وتطبيق أدوات التحليل والتفكيك والربط بين المسببات الاجتماعية والتاريخية والمنتج الديني ،أذن : فالمنطق الاجتماعي للسلوك الديني هو اسلوب الباحث د. يوسف شلحت في كتابه .

٧ - أن تحرى تأثير الدين على المجتمع أفراداً ومجموعات بشرية والبحث في آثار تنوع الأديان يراها الدارسون أنها نابعة من تنوع المجتمعات ويتم تحديد نطاق هذا التأثير بلا أطلاق سلبي أو أطلاق تأثيري يتطلب منهجاً علمياً تحليلياً يأخذ كل العوامل التي تفسر الظاهرة بنظر الاعتبار ويتعامل مع المنتج الديني بوصفه معرفة استهلاكية .

٨ - وينشغل المؤلف (يوسف شلحت) بمحاولة للإجابة عن مجموعة من الإشكاليات ومنها :

- هل العلم الدنيوي لا قيمه له إمام العلم الديني في نظر المشتغلين بالمعرفة الدينية ؟
- هل العلم الدنيوي يلغي المعرفة الدينية في نظرهم أيضاً ، وما حقيقة هذا الفهم ؟
- هل النخبة من رجال الدين تلغي جمهور المتدينين ودورهم في تعزيز المعرفة الدينية ؟
- كيف نفسر لجوء (مجموعات دينية) الى استعمال ايدولوجيا الدين لمقارعة الايدولوجيات الأخرى لاسيما السياسية بأساليب (النفي – الإقصاء – التكفير) بحيث نشهد تعاظماً في استعمال السياسة للدين كأداة للصراع رغم أن الدين كما يفترض هو الجامع للناس على سبيل التضامن .

- كيف يقف العلم والمعرفة البرهانية وقفه موضوعية ومحايدة إزاء الآراء المتعددة في مستقبل الديانات ، وكيف يقدم التنبؤ الإحصائي العلمي مشهداً للدين في المستقبل ؟.

٩ - يرى المؤلف أن الخلق الاجتماعي للدين يتم عن ، مجموعة من الطرق :

أ- الإكراه الاجتماعي .

ب- الأحداث الاجتماعية الكبرى القابلة لكي تفسر غيبياً .

ت- الشعور المشترك .

ث- مادية الحدث الاجتماعي .

١٠ - ويرى إن الديانة في علم الاجتماع أما :

(١) أما ديانات عاطفية فردية .

(٢) ظاهرة اجتماعية مشتركة .

١١- ينقل المؤلف تعريفات الديانة فينقل عده روى وتصورات منها :

ما يعرفها فيور باخ : بأنها عزيزة تدفع الإنسان للسعادة .

وما يعرفها برغسون :أنها شعور داخلي بالحقائق ، ويعد رد فعل على استعمال المفرط العقلانية .

وما يراها فرازر : أنها الإيمان بكائنات عليا هي : (الأرواح – الجن – القوى الإلهية) ، لذلك كان فرازر يرى أن البوذية فلسفة وليست ديانة لأنها ليس فيها أرواح فلما أدخلتها صارت ديناً.

أما دركايم :فيعرفها بأنها كل ما يقسم الأشياء الى حلال وحرام ، وما يقسم المحرم الى (طاهر محرم / نجس محرم) .

١٢- ويحدد المؤلف ما يسميه بـ : ((أقوام الديانات)) بعدة أمور أبرزها في

أ- المعبد :ويرى إن فكرة المعبد المتحول من الكهف الذي أصبح فيما بعد (المدفن)الى هيكل مقدس قد صار مستودع للقديسين (قبور العظماء المحاطة بالإجلال والمتحولة الى مزارات) وتحولت

أرواحهم الى أرواح ارفع من مستوى البشر ، وقد نشأ هذا في ظل تصورات الإنسان لعالم آخر وتفرع عن عقيدة تناسخ الأرواح .

ب- ألمانا: وهي قوى روحية يمكن للإنسان إن يسخرها لمصالحه (طاقات سحرية خلاقه) (mana) .

١٣ - يعتقد المؤلف أن قوانين تطور العقائد هي:

أ- قانون الانتقال من النفي الى الإثبات مثل (لااله إلا الله)

ب-قانون الزيادة فالبابا في الأصل مطران روما لكنه أصبح الرجل الأول في الديانة المسيحية فهو الذي يقرر مصير الديانة ، وأقتضى أن يعد معصوما لأنه الناطق لكلمة الله .

ت- قانون التعقيد : أذا الأديان تبدأ بسيطة ثم يتوالى الجهد التفسيري فيدخل عليها المزيد من التعقيد .

١٤ - يعتقد المؤلف أن الذبيحة :عبارة عن خطب لود الإلهة والذبيحة البشرية هي أقدم الذبائح والأصل في الضحية قربان أنها لقوى خفية .

١٥ - هناك مجموعة من يرى تفسير التدين التي تفسر المؤلف وأهمها:

أ- تفسير تايلور: أن الاعتقاد بان النفوس بعد الموت لا تضمحل بل تتحول الى أرواح متحركة وواعية وفاعلة الأصل في تفسير التدين .

ب- ماكس موليز:يعتقدان الإنسان محاط بالإسرار ولأنه لا قدرة له على تفكيلها فأضطر الى أن يعبد القوى اللانهاية والمطلقة وبذلك يفسر التدين بانغماره في أسرار الكون .

ت- تفسير نيتشة: يرى أن التدين بواعثه التعطش الى السعادة .

ث- برغسون: يرىالديانة غريزة مضمرة في الفطرة الإنسانية .

١٦-: يقرر المؤلف أن العلاقة بين الدين و السلطة متنوعة فيرى فرازر أن :السحر اسبق من الدين في التحكم بالمسار البشرى فلقد تحول الساحر الى كاهن ثم الى الكاهن الأعظم حتى دخل في مصاف الإلهة وجمع السلطتين المدنية و الدينية

معا . رغم ان السلطةكانت موزعة على الناس كل فرد يملك قدراً منها فلما حصل انتقالهم الى القرية وأمتهن الإنسان للزراعة أفرز هذا الاستقرار رؤساء القبائل فصار كل واحد منهم الحاكم والقاضي والمدبر والمحارب والمطاع فتركزت السلطة في فرد رئيس العشيرة على مجموعة ا من الفلاحين وباندماج القبائل تحولت السلطة من سلطة الفرد الى ((مجمع للملأ)) فصار هذا المجمع يقرر مصائر مجموعة القبائل ، من خلال التحالفات أو الاندماج المجتمعي فظهر نظام نبلاء المقاطعات وأمراء الدويلات ثم تطور الأمر الى نظام ألدوله الملكية والإمبراطوريات فيما بعد فلما جاءت المسيحية وحكمت المقاطعات ودويلات الأمراء حكمت هذه الدويلات باسم الله

ويقول المؤلف أن المسيحية أول نشأتها المسيحية كانت :جمعية للإصلاح الديني – لكن لما استتب الأمر لها أملت إرادتها على السلطة الحاكمة – ثم ضمت لها السلطة المدنية فلما – ضعفت اضطرت للتخلي عما اكتسبت ، واليوم تحاول العودة الى سابق عزها بالتأثير على السياسات الكبرى للدول المسيحية .

١٧ – يرى شلحت أن الإسلام : غايته عند إشراقته الاولى تنوير العقول ولكنه لم يتم له ذلك إلا بالجهاد المسلح لان الحرب كانت اشد الوسائل إقناعاً عند قوم شأنهم الغزو والقتال فصارت الحركة الدينية = عبارة عن جهاد ارتبطته النهضة القومية والسياسية في الإسلام لذلك يتطابق عند المسلمين مفهوم ألدوله ومفهوم الأمة .

١٨ – يتابع المؤلف اثر الديانة في الحياة الإنسانية فيبدأ من :

أ- الدين وتأثيراته على الأصول الفلسفية ويرى أن الدين كالفلسفة مجموعة متماسكة من المبادئ التي يفسر بها الإنسان إسرار الكون ، ويقول أنهناك مقولة (إن ظهور الفلسفة كان مع ظهور الديانة) فهي الباعث والدافع

والمحرّك فالأديان : أوجدت بذور المعارف الأولى ومنها تشبعت الفلسفة لتحلل وتراكم المعرفة

ب- وأن الدين له أثره على والأخلاق : فالحياة الخلقية تستمد قوتها من الدين (فللدين و الأخلاق :هدف واحد) هو صنع الإنسان والايجابي الذي يخلق السعادة .

ت- أن الافتراض السليم أن الدين يساعد على احترام السلطة المدنية ويوطد دعائم الملكية الفردية ويؤمن للفرد إتعابه ويخلق الضابط النفسي لعدم الاعتداء ، ويشكل والدافع للتعاون بني البشر .

ث- أن الدين:يقوى في النفوس احترام الأسرة ويشدها الى ذاتها ، ويرتب عليها تنوع المجتمعات .

ج-أن الدين و الفن تؤمان يظهران من خلال (النقوش ، والجماليات المعمارية) وقد شجعت البروتستانتية الفن حتى اتهمت أنها ذات نزعة (وثنية) .

١٩ - يرى شلحت إن قوانين التطور الديني في الأديان كافة:

أ- من القوانينرقي الديانات وتقهقرها كما يعتقد اوغست كونت التحولات : (من اللاهوتي – الى الميتافيزيقي – الى الوضعي).

وتحولات العبادة من عبادة الأشياء التي يخاف منها الى عبادة الإلهة المتعددة ، الى عبادة توحيدية لله الواحد . ويعتقد غويو/و دركايمأن مآل الديانة الى الاضمحلال وأن العلم سيحل محل الدين .لأنهما ينطلقان من أن الدين يكون قوياً في نطاق (البداوة) ويضعف مع بيئات الحضارة : (لان الفرد في الحضارة قد أمن احتياجاته واطمئن لعالمه الخاص فزال عنه الخوف الذي يجعله متعلقاً بالدين.لكن الحقيقة

ألان: أن هناك عجزاً في الماديات من تحقيق الاطمئنان النفسي مما يشكل دافعاً للتدين للشعور بالسعادة فنحن هنا أمام عدة قوانين :

- قانون التوحيد الديني:الأديان تنتقل من التعدد الى الوحدانية
- قانون الاتساع تعاليم الدين تشمل مستويات الفعل الإنساني كله
- قانون الانتقال من العام الى الخاص
- قانون الانتقال من الماديات الى الروحانيات .

٢٠ - يختم المؤلف كتابه بان مستقبل الديانات كما أستقرأ المؤلف الدراسات الخاصة بهذا الصدد فذكر:

- أن البشرية منتقلة من الماديات الى الروحانيات في حاضرها ومستقبلها
- أن السلطة المدنية آخذه في الاستقلال عن السلطة الدينية ، لكن يبقى الدين فعالاً وان كان خارج السلطة في القيم النفسية الفردية والاجتماعية .

- أن العبادة:قوة روحية تمنع اليأس من إن يتسرب الى الإنسان وهذا خير رادع عن المنكرات و ترقية الذوق و ترقية الوعي ، فإذا رحل الدين حلت الخرافة .لكن : هذا لا يمنع من القولأن العقل الصحيح هو وليد التفكر العلمي ، وهذا يتطلب ديانة صحيحة منزهة عن الخرافة ، وأن من الضروري أن تبقى العاطفة الدينية فعالة في النفس الإنسانية : و إن يبقى الإنسان يحتفظ بها وهي أكثر نقاوة بل يفضل أن يبقى معجباًبها و بالكون المملوء بالابداع والجمال والنفع وأن يتأمل في القوى غير المتناهية و يسعى دائماً وراء هدف اجتماعي وكوني صالح ونافع .

ويقول غويو:المتدين الحقيقي هو الذي يجد في طلب الحقيقة و يفكر بها ويحبهاويسعى نحو نفع الإنسان .. أينما كان أو أدين أعتنق .

بهذا أستطيع القول أني قدمت عرضاً كافياً للكتاب أرجو أن أكون قد اعطيت خلاصة وافية لمضمونه وخطابه النقدي .